ما أحوج زمننا إلى فكر أرسطو ... لا قداسة ولا تعصّب في البحث عن الحقيقة

كتب محمد زكريا توفيق

العارف بأفلاطون يعرف أن كان لديه تلميذ نجيب يدعى أرسطو، أضحى فيما بعد فيلسوفاً يضاهي، بل ربما يفوق، أستاذه في الشهرة وغزارة الإنتاج الفكري. وربما يعرف أيضاً، أن لأرسطو تلميذاً آخر إسمه الاسكندر الكبير الذي أضحى بمجرد تخطيه سن الطفولة واحداً من أعظم القادة العسكريين وألمع الغزاة وبناة الإمبراطوريات الذين عرفهم التاريخ.

سلالة غير عادية من البشر أنجبها ركن صغير من المعمورة يدعى بلاد الإغريق في القرن الرابع قبل الميلاد. لكن التلميذ لا يسلك غالباً، الدرب نفسها التي يسلكها أستاذه. أنشأ أرسطو مدرسته في مدينة أثينا وكانت تضاهي بل تتفوق على مدرسة أفلاطون الأكاديمية.

إمبراطورية الاسكندر الكبير كتبت سقوط أثينا، المدينة – الدولة، وكان يعتبرها أرسطو أفضل صيغة ممكنة للحكم. إمبراطورية الاسكندر كانت عبارة عن تجمع كبير من الأجناس والممالك المختلفة، تمتد شرقاً من بلاد الإغريق وتصل إلى مشارف بلاد الهند. وداخل الإمبراطورية فقدت المدن الإغريقية التي بنى عليها أرسطو جميع الآمال في تقدم الإنسان حريتها وكبرياءها ولم تستطع استعادتهما البتة.

قصة أرسطو (384 – 322 ق. م) متشابكة مع الحوادث التي وقعت في مقدونيا، شمال اليونان على ساحل بحر إيجة، فنصف سكانها خليط من الإغريق ومن البرابرة، أي ن الشعوب غير الإغريقية.

لم يولد أرسطو في أثينا مثل سقراط وأفلاطون. والده كان طبيباً في بلاط ملك مقدونيا. عندما كان صبياً كان يعيش في جو علمي، ربما كان يعدّ ليصبح طبيباً مثل والده. وفي سن السابعة عشرة، عندما توفى والده، ترك وطنه وتوجه جنوباً إلى أثينا، عاصمة الحضارة الإغريقية، لكي يلتحق بأكاديمية أفلاطون ويتعلم على يديه. وهناك، ظل في الأكاديمية عشرين سنة يدرس ويكتب ويدّرس الفلسفة والرياضيات وعلوم الأخلاق والسياسة والجمال. هل للجمال علم؟ بلى، وهو فرع من فروع الفلسفة.

كان أرسطو قبل الميلاد بثلاثة قرون يدّرس الفلسفة وعلم الجمال في أثينا، ونحن في القرن الحادي والعشرين نناقش عذاب القبر والثعبان الأقرع ورجم القرد الزاني ونقيم محاكم التفتيش لمن ينكر ذلك!

كان أفلاطون يصف أرسطو بأنه العقل المفكر لمدرسته «الأكاديمية». لكن لدى وفاة أفلاطون عيّن سواه رئيساً للأكاديمية. لذا ترك أرسطو أثينا وتوجه شمالا إلى ساحل آسيا الصغرى وجزيرة لسبوس، وأمضى فترة زمنية لدى زميل دراسة قديم وأمسى حاكماً لمقاطعة ساحلية غير مهمة وتزوج من ابنة شقيق زميله. خلال هذه المدة، استعاد اهتمامه الأول بالعلوم الطبيعية فكان يدوّن الملاحظات والبيانات، خاصة عن أشكال وعادات الأحياء المائية التي صادفها على الساحل. وفي ذلك الوقت كان فيليب ملك مقدونيا رجلاً ذا قدرة هائلة وعزيمة قوية. كان يحوّل بلده مقدونيا طوال سنين من دولة فقيرة بائسة يشتغل شعبها بالصيد إلى مملكة غنية قوية ذات جيش جرار لا يقهر.

كان جيش فيليب منظماً يتدرب على نظام جديد للقتال، ويتكون من كتل عديدة ضخمة من المشاة وعرف بالتشكيلات السلامية المقدونية. بهذا الجيش والثروة الجديدة المكتسبة، حاول إغراء المدن اليونانية بالانضمام إليه لغزو الإمبراطورية الفارسية القديمة التي تمثل خطراً يهدد بلاد الإغريق على الدوام. لكن المدن اليونانية كانت تشك في نوايا فيليب المقدوني. في أثينا، مثلاً، هاجم الخطيب ديموثينيس فيليب ووصفه بأنه طاغية يزعم مساعدة شعبه فيها يحوذلهم جميعاً إلى عبيد له.

في الوقت نفسه، كان فيليب يبحث عن مدرّس إغريقي متميز لتعليم ابنه الوحيد النجيب، الاسكندر، وكان مراهقاً في الثالثة عشر. في عام 343 ق. م، عرض الوظيفة على أرسطو، الذي قبلها عن طيب خاطر.

لم يكن فيليب يعلم شيئاً عن رأي أرسطو السياسي في ما يدور في بلاد الإغريق. عام 340 ق. م، في سن الخامسة عشرة، حكم الإسكندر مقدونيا، نيابة عن والده فيليب أثناء غزوه بلاد الإغريق.

وفي عام 338 ق. م، واجه جيشا أثينا وطيبة جيش فيليب، لكن الإغريق هُزموا هزيمة منكرة أمام جيش فيليب في موقعة خيرونيا. ثم سقطت باقي بلاد الإغريق تباعاً تحت الاحتلال المقدوني. وبعد ذلك بعامين اغتيل فيليب المقدوني وكان على وشك التحرك لغزو بلاد فارس. خلفه ابنه الاسكندر الذي ورث عن أبيه، وربما أكثر من أبيه، العبقرية والطموح.

وأول ما فعله الاسكندر هو إجبار الإغريق على الامتثال لحكمه. بعد ذلك غزا كامل بلاد شرق المتوسط، الواحدة بعد الأخرى، بلاد ما بين النهرين، مصر، وفارس. جاء كمخلص، محارباً العنصرية والطائفية والعوائق السياسية، وبانياً المدن على النمط الإغريقي وجاعلاً إيّاها مراكز للنور والثقافة والحضارة والإدارة. وبينها مدينة الاسكندرية في مصر، على سبيل المثال، ومدن أخرى شرق تركستان وعلى حدود الهند.

عام 323 ق. م، وعلى غير المتوقع، توفي الاسكندر بالحمى، ثم قام قادته بتقسيم إمبراطوريته الوليدة في ما بينهم بعد حروب طاحنة.

بعدما تقلد الاسكندر مقاليد الحكم، عاد أرسطو إلى أثينا التي أضحت تحت الحكم المقدوني. استأجر هناك مبنى كان مخصصاً للإله «أبوللو ليسيوس»، ويعني اسمه أبوللو أمير الضياء. ليسيوس كلمة مشتقة من كلمة الضياء باليونانية. ثم كان اسم المدرسة التي أنشأها أرسطو «الليسيوم».

في مدرسة الليسيوم، جمع أرسطو الكتب والمخطوطات، وعينات علمية من المواد والأحياء المختلفة للأبحاث والدراسة. وأنشأ أرسطو حديقة نباتات وحديقة حيوانات وطيور للدراسة. أحد تلاميذه أو أكثر كانوا يرافقون الاسكندر في حملته نحو الشرق ويرسلون ما يصادفهم من نباتات وحيوانات أو طيور غريبة إلى مدرسة أرسطو. وفي مدرسة الليسيوم كان أرسطو يقوم بالأبحاث ويحاضر في كل فرع من فروع العلوم المعروفة في ذلك العصر. وكان يدرّس في الهواء الطلق سائراً على الشرفات المكشوفة التي تطل على الحديقة. هذا الأسلوب الجديد في التدريس جعل الليسيوم مركزاً لدراسة العلوم الحديثة وأبحاثها مثل العلوم الطبيعية والفلسفة والعلوم السياسية وغيرها. بالنسبة إلى نشاط المدرسة وحجمها ومدة بقائها وعدد طلابها فإنها تجاوزت مدرسة أفلاطون الأكاديمية التي ظلت تعمل وفقاً للبرنامج الذي وضعه لها أفلاطون قبل وفاته.

لكن موت الاسكندر الكبير الباكر وضع نهاية لنشاط أرسطو في أثينا. الشعور الوطني المتنامي ضد المقدونيين بدأ يتكثف في المدينة بسبب وجود المحتل. تحول هذا الشعور بعد وفاة الاسكندر إلى كره وعداء سافرين لكل من كانت له صلة بالمقدونيين. وضع أرسطو كمدرس سابق للاسكندر، عائد إلى أثينا بعد نصر المقدونيين المؤزر على الإغريق تحت المراقبة وعانى بعض المضايقات. ثم علت الأصوات تطالب بمحاكمته، مثلما حاكمت أثينا قبلاً سقراط وأعدمته قبل 80 عاماً. لكن قبل أن تعقد محاكمة لأرسطو فر مرة ثانية إلى الشمال كي لا تجرم أثينا في حق الفلسفة مرتين. هناك في كالسيس، توفى أرسطو بعد سنتين من وصوله. ترك وصية يحرر فيها عبيده من الرق. واستمرت مدرسة الليسيوم بإدارة تلاميذه لمدة ثمانية قرون بعده، حتى إقفالها مثل أكاديمية أفلاطون على أيدي الامبراطور المسيحي قسطنطين. كانت الفلسفة في عهد هذا الأخير حراماً.

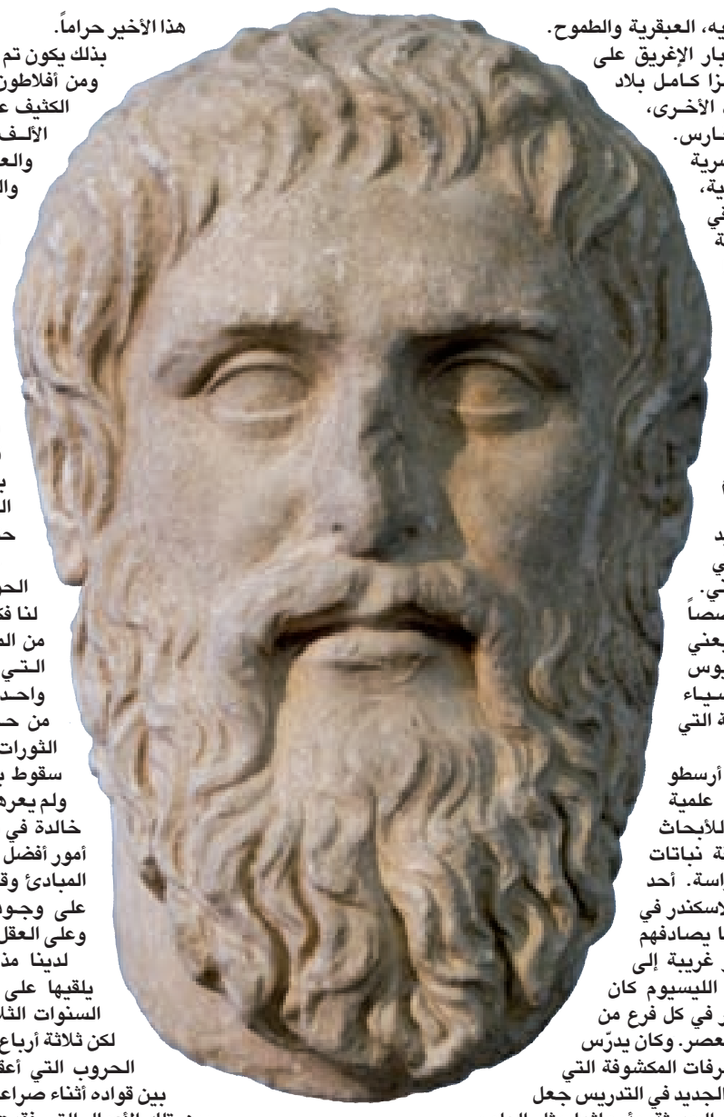

بذلك يكون تم الانتقال من الفلسفة إلى الدين، ومن أفلاطون إلى المسيح، وأسدل الستار الكثيف على العقل والفكر، وبدأت رحلة الألف سنة من العصور المظلمة والعصور الوسطى، حالكة السواد والبؤس.

أيام أرسطو عاشت المدن الإغريقية مجدها واستطاعت أن تدافع عن حرياتها وأسلوبها في الحياة ضد غزوات الفرس المتكررة. لكن بعدما فشلت تلك المدن في وأد خلافاتها فقدت استقلالها وأغلقت مدارسها وخبت شعلة حضارتها. ولو استثنينا فترات قليلة قصيرة من عمر بلاد الإغريق لألفينا أن هذا الوضع البائس ظل على حاله حتى القرن التاسع عشر.

عاصر أرسطو بداية تلك الحوادث وكان يعرف أبطالها. ترك لنا فكراً عميقاً عظيماً رائعاً في كثير من المواضيع. في سائر المعلومات التي تركها لنا لم يعقب بكلمة واحدة على ما كان يدور في زمنه من حوادث. لم يحدثنا أرسطو عن الثورات التي كانت تدور حوله. شاهد سقوط بلاد الإغريق وغزوات الاسكندر ولم يعرها اهتماماً. إنها حوادث بلا قيمة خالدة في نظره. كان تركيز أرسطو على أمور أفضل خالدة، على معنى أعمق، على المبادئ وقوانين الطبيعة التي لا تتغير، على وجود الإنسان المتحضر وسلوكه وعلى العقل والمنطق والمعرفة والفنون.

لدينا مذكراته ومحاضراته التي كان يلقيها على طلابه في الليسيوم خلال السنوات الثلاث عشرة الأخيرة من حياته. لكن ثلاثة أرباع إنتاج أرسطو الفكري فقد أثناء الحروب التي أعقبت موت الاسكندر واشتعلت بين قواده أثناء صراعهم على السلطة.

بين تلك الأعمال التي فقدت، المحاورات التي كتبها على نمط محاورات أفلاطون شاباً صغيراً، وكل شيء كتبه للتوزيع على طلابه، باستثناء دراسة قصيرة عن دستور أثينا اكتشفت عام 1890 في مصر مكتوبة على ورق البردي.

عثر عن طريق المصادفة البحتة على مجموعة متنوعة من الملاحظات والمذكرات التي كان يحاضر بها في الليسيوم وكتبت في أوقات مختلفة. اكتشفت في آسيا الصغرى مخبوءة تحت الأرض. وبعد قرنين من الزمن، نسيت تلك الوثائق المدفونة وأكلتها العتة والعفن والديدان. حتى زمن غزو الرومان لآسيا الصغرى، فاكتشفت ونُقلت إلى روما. حيث كان هناك عالم عرف قيمة تلك المخطوطات التي وصلت في حالة يرثى لها. ثم نقل النساخ محتوياتها وملئت الفراغات قدر المستطاع وصنّفت بحسب الموضوع.

عام 70 ق. م، نقّح أندروميكوس من رودس أعمال أرسطو هذه، وأصبحت النسخة الرسمية. تلك النسخة هي التي اتطلع عليها سيسرو في زمانه، وهي نفسها التي نستخدمها اليوم. لم نجد شيئاً أقدم من ذلك لأرسطو. ثم تختفي أعمال أرسطو ويطويها النسيان أكثر من ألف عام.

ليست هناك قصص وحكايات أكثر إثارة وتشويقاً من قصص اكتشاف علوم ومعارف قديمة ساد الاعتقاد بأنها فقدت إلى الأبد. تلك المعارف تنقسم قسمين: معارف ومفاهيم لا تتسبب بثورة كبيرة في معارفنا ومفاهيمنا، مثل مخطوطات البحر الميت وأناجيل نجع حمادي السرية، والقسم الثاني معارف ومفاهيم تمثل طفرة عظيمة في الفكر الإنساني والحضارة.

في فيلم «أوديسة الفضاء 2001» اكتشف علماء الفضاء حجراً أسود كبيراً على شكل لوحة مدفوناً في أرض القمر ويمثل رسالة من سكان كواكب أخرى إلى الإنسان، لمساعدته في الوقت المناسب على البدء في ثورة علمية جديدة تجعله قادراً على السفر والاتصال بين سكان الكواكب والأجرام الكونية.

كانت مؤلفات أرسطو لمسيحيي أوروبا في القرون الوسطى بمثابة رسالة من العوالم الأخرى لسكان الكرة الأرضية. كان لها تأثير معجز ومبهر غير مسبوق. نحو ثلاثة آلاف صفحة تغطي مساحات عريضة من العلوم والمعرفة. وأعتقد أن مؤلفات أرسطو لسكان الشرق الأوسط وبلادنا المنكوبة هي أيضا الخلاص الوحيد لحالة العته التي نعيشها اليوم. وسبب كتابتي هذه المقالات عن أرسطو. لعلّ وعسى!

تشمل أعمال أرسطو علوم البيولوجيا والفيزياء والمنطق وعلم النفس والأخلاق والفلسفة والعلوم السياسية وغيرها. هذه العلوم والمعارف تبدو كأنها أتت من حضارة سكان كوكب آخر فائق التقدم والرقي. لم تكن كتب أرسطو المكتشفة مكتوبة بلغتها الأصلية، أي اليونانية، ولم تكن مكتوبة على ألواح من الطمي أو الحجر، أو مدفونة في جرار فخارية مثل معظم الاكتشافات المهمة. إنما كانت في صورة مخطوطات باللغة العربية، موزعة بين مراكز المعرفة في ذلك الزمن: بغداد والقاهرة وتوليدو وقرطبة.

بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، وانهيار النظام في أوروبا، أضحت أعمال أرسطو وباقي الفلاسفة اليونانيين، من ممتلكات الحضارة العربية الوليدة التي حكمت منطقة الشرق الأوسط وفارس وشمال أفريقيا والأندلس، فيما كانت أوروبا تغط في سبات القرون الوسطى العميق.

ما وجدناه من بعض أعماله هو كل ما لدينا للحكم عليه، وهو كاف ليظهر لنا عظمة هذا الرجل وسعة مداركه التي أصبحت الأساس أو عمود الخيمة التي بنيت عليها الحضارة الغربية الحديثة التي نعرفها اليوم.

أرسطو عقل منهجي أكثر من عقل أستاذه أفلاطون. أعماله معقولة، منطقية، تعليمية، كل منها يغطي موضوعاً معيناً. على عكس أفلاطون الذي ترد معلوماته أثناء الكلام والحوار، منتقلاً من موضع إلى آخر قبل العودة إلى الموضوع الأول.

بين وثائق أرسطو هذه مواضيع: المنطق، الميتافيزيقا، الفلك، الفيزياء، البيولوجيا، الفيسيولوجيا، علم النفس، الأخلاق، السياسة، البلاغة، الشعر. وفي كل مجال يبين لنا أرسطو طرائق متقدمة واكتشافات جديدة. لا يعتمد الترغيب في الجنة والحور العين أو التخويف من النار وعذاب القبر والثعبان الأقرع لإقناعك بصحة معلوماته! لا يقول لك إذ هذه المعلومات أتته بالوحي وهبطت عليه من السماء فيما كان يتعبد في خلوته في الغار أو فوق الجبل وحيداً. إنما هي معلومات عامة للجميع، يمكن أن يحصل عليها كل راغب في المعرفة. ويمكن الوصول إلى هذه المعلومات عن طريق التجربة والمشاهدة والاستنتاج، وتلك أمور متاحة للجميع. إن قبلتها، جيّد، وإن رفضتها فهذا حقك. لا إجبار ولا قتل ولا تهديد ولا وعيد ولا تعذيب ولا بتر. فقط المطلوب استخدام قدرات عقلك وبديهتك وفطرتك السليمة.

يتميز أرسطو عن أفلاطون في كونه ابن طبيب ورث عن والده حبه للعلوم الطبيعية وقوة الملاحظة بالنسبة إلى جميع الكائنات الحية. أضف إلى ذلك أنه كان تلميذاً نجيباً لأفلاطون، ورث عن أستاذه نظرة فلسفية عميقة عن العالم ككل، وعن طبائع الإنسان وقدراته.

كان أرسطو يستخدم الأسباب والمُثل والمبادئ المجردة والنظريات، مثل أفلاطون، عندما يخرج الموضوع على نطاق التجربة والمشاهدة. لكنه كان في الوقت نفسه، حريصاً على تعديل أيّ نظرية تثبت التجربة عدم صحتها. كان مفكراً عظيماً صادقاً، وفي الوقت ذاته عالماً تجريبياً رائعاً. كان يقول، توخياً للدقة في بعض الحالات، إن نتائج هذه التجارب ليست كافية للوصول إلى النظرية الصحيحة. وإذا ثبت مستقبلاً بالتجربة عكس ذلك فلا بد من تعديل النظرية. لا قداسة ولا تعصب في البحث عن الحقيقة.

مسلسل «قلم حمرة»... حشد للتقنيات الدرامية والوعظ سيّد الموقف!

دمشق– رشا ملحم

دخلت بطلة «تخت شرقي» الميدان بعد غياب أربع سنوات بزي المحارب الذي يرى أن الساحة لا تحتمل الانتظار أكثر، مستحضرة المسرح وأدواته لتضعه في الشاشة الصغيرة التي احتجت عليها في بداية مشاهدها في مسلسل «قلم حمرة» دونما أن نعلم حينها أنها تسعى إلى شق طريق جديد على مستوى الأسلوب وتتطلع إلى إيصال أفكار تعالج الوضع الراهن في الوقت نفسه.

لعلّ تناول موضوع الأزمة في سورية جعل يم مشهدي، كاتبة النص، تعمل بمقولة شكسبير «ما الحياة إلا مسرح كبير»، حاشدة هذا الكم من الشخوص التي تعمل في مختلف مفاصل الفن من كتاب إلى طلاب المعهد العالي للفنون المسرحية أو الفنون الجميلة أو الموسيقى لتكون الراوية «ورد» (سلافة معمار) مايسترو العمل وتؤدي فيه أيضا الدور المحوري في العمل ككاتبة سيناريو، ما يستحضر طيف كاتبة العمل التي مرت في ظروف البطلة نفسها.

يمكن القول إن هذا الوسط سهل مهمّة السفسطة والتنظير ليبلغا مستويات عالية خلال العمل الذي يمتزج فيه الخيال بالحقيقة والواقعية بالسوريالية، الأمر الذي جعله خلطة لذيذة لكنها سرعان ما تتسبب بالتخمة لمتناوليها. إلا أن نسبة المتابعة العالية للمسلسل رغم عرضه على قناة وحيدة هي «السومرية» تعكس المزاج العام للجمهور السوري الذي يبدو لاهثاً وراء أجوبة عن ملايين الأسئلة التي تقض مضجعه أكثر من أي وقت مضى.

يبدو الشكل العام للعمل متعدد الجنس، فمشاهد الحلقات الأولى تبدأ بخواطر البطلة حول مواضيع حياتية وأخرى وجودية، بأسلوب روائي نجد أحياناً طروحاً مشابهة له على منشورات «الفيسبوك». ثم تنتقل خلال الحلقة إلى قصة العمل بشخوصها الأخرى وفقاً للنمط الدرامي المعهود. إلا أن الكثير من الحوارات التي ترد على لسان الشخوص بغالبيتها وعظية ومكثرة في إطلاق الحكم، إلى حدّ أنها تمحو إلى حد ما خصوصية كل شخصية وتفردها. مثلاً ممكن أن ترد نظرية: «عندما يوجد مال لا يوجد شعور وعندما يوجد شعور لا يوجد مال» على لسان «ورد» أو «بسام» أو «نورس»... إلخ، ضمن بيئة من الواقعية الميالة إلى العبثية، بأداء مسرحي في العديد من المشاهد وبفنيات سينمائية في سواها كحال مشاهد الزنزانة.

من ناحية ثانية، مكنت تقنية «الفلاش باك» الكاتبة من العودة بالزمن إلى الوراء، راصدة المشهد قبل الأزمة من قلب زنزانتها لتجعل من المسلسل «قلم أحمر» وتضفي عليه المسحة العبثية، من موقع المجرب، على مشهد البلاد وهي تعيد إنتاجه من عدة جوانب كالموروث الاجتماعي والثقافي، ثم الانتقال إلى مظاهر الفساد المنتشرة مستخدمة مختلف وسائل التفريغ النفسي لبلوغ تلك الغاية، مثل الكتابة وتعاطي المخدرات وحبوب الاكتئاب، إضافة إلى الرسم والموسيقى، خاصة الهارد روك، لكنها لسبب ما غيبت اللجوء إلى التيار المتطرف كآلية نفسية، رغم أنه حضر في المشهد السوري الحقيقي.

تتبع سيرورة العمل شكلاً متحلقاً، إذ تمر كل شخصية في تجربتين تعي كل منها حقيقة معضلتها لكنها تفشل في الخروج منها في المرة الأولى، لتعاود هذه المشكلة الظهور محدثة تحولاً في مسار الشخصية، ثم لتغلق الحلقة الأخيرة نهاية المطاف من نقطة توازي البداية الشخصيات ذاتها في المناسبة عينها. لكن اللافت أن تشير الكاتبة إلى ذلك على لسان «ورد» الراوية التي تعلق على الحوادث وتفسد في كثير من الأحيان متعة الكشف لدى الجمهور، فهي التي تعقب قائلة «الخبرات تتكرّر لكنها تودي إلى مطارح ثانية». وكمثال آخر جاء على لسان تيم عابد فهد الطبيب النفسي قوله واصفاً حازم رامي حنا بالشخص التنافسي الذي يحب الحصول على ما يملك أقرانه، رغم أن شخصية الأخير باتت واضحة للمشاهدين دونما حاجة إلى هذا التحليل.

تدور الكاراكتيرات في فلك شخصية «ورد» كونها الكاتبة التي رسمت الشخوص الأخرى من قلب زنزانتها، ما يتيح لها التنقل في الزمن بين الحاضر والماضي القريب في حين تبدو شخصيتا «تيم» و«هيفا» (كاريس بشار) متشابهتين إلى حد كبير لناحية وضعهما الاجتماعي وقربهما من «ورد»، فكلاهما تزوج وأنجب في سن باكرة، وكلاهما ينجح في حل مشاكل الآخرين إما بالتحليل النفسي والنصح الأكاديمي، أو بتقديم الكحول وإسداء النصائح، استناداً إلى الخبرات الحياتية، فيما يواجهان مشاكل جسيمة في تربية الأولاد وإمكان السيطرة على أفعالهما. ويمكن القول إنهما يشكلان مع «ورد» ثالوث الفرد الشخص–الحبيب–الصديق.

أما لناحية رسم مسار الشخوص، فثمة تقابل «حازم» يقابل «تيم» وهو النموذج الأناني الذي يطرح نفسه كحبيب «ورد»، في حين تقع «جودي» (نظلي الرواس) مقابل لـ«هيفاء»، فهي الصديقة التي تحتل مرتبة ثانية بالنسبة إلى البطلة وتتسم بالتكلف في الشكل والبساطة في المضمون، على عكس «هيفاء» ورغم أنها تبدي حقداً في بعض الأحيان، إلا أن «جودي» صادقة وتحمل شخصيتها مسحة طريفة بطريقة أو بأخرى.

باتباعه شكلاً تصاعدياً، انطلق العمل من الفرد بهمومه ومواجعه الذاتية، ثم انتقل إلى المحيط الضيق وتشابك العلاقات والضغوط اليومية، إذ تعيش الشخوص في معظمها داخل منازل لا تضم الشكل التقليدي للأسرة، وإن وجدت فمظهرها جحيمي، ثم يحث انتقال إلى المجتمع أجمع بما يعانيه من مظاهر تخبط قيمي وفساد عام.

تظهر البيئة الاجتماعية التي يدور فيها العمل أكثر تحرراً من سابق عهدها لناحية التعامل مع قضايا أسرية، مثل الطلاق. كما أن البحث جار عن أنماط أخرى لعلاقات الأسرة، في حين صوّر المثليون في العمل على أنهم منبوذون أو عرضة لاستغلال حالتهم من قبل جمعيات عالمية، وهنا تجدر الإشارة إلى أن مخرج العمل حاتم علي نجح في التعامل مع المشاهد ذات الصلة بالموضوع، مبتعداً عن المبالغة في لباس الشخوص، أو لغة جسدها بما لا يقل براعة عن تعامله في تناول لهجة السجان التي كانت بيضاء ولغة عناصر تنظيم دولة العراق والشام الإرهابي غير المفهومة. مبتعداً عن التجييش الرخيص للمشاعر ضد أي فئة.

عطفاً على ما سبق، طرح قلم حمرة العديد من الأسئلة الوجودية مثل الخوف وعقدة الذنب وما يوازيها من ردود فعل كالصوم وتقديم القرابين والاعتذار وأسطورة الماضي الجميل وصولاً إلى السؤال الجوهري «الانتماء» وما لهذا المفهوم من تبعات ستطفو على السطح في ما بعد في المشهد السياسي. كما أن حواراً بحجم هذا «صبا.. غمضي عيونك وادعي... رب العالمين بيستجيب لعباده....» أو «ورد.. لم تغمض عينيها ولأيمتى بدنا نضل عبيد...» يعلن رفض القيم والمفاهيم التي تقف حائلاً أمام الحرية الشخصية وحرية الرأي وجواب «ورد» على «صبا» من دون أن تغمض عينيها، يشي بالكثير، رافعاً سقف الحرية في الطرح إلى أعلى المستويات وكاسراً جميع المحرّمات التي تقع تحت أي مسمى، مقدماً بذلك خدمة كبيرة إلى الدراما السورية الرائدة فكرياً وفنياً على مستوى العالم العربي.

للأماكن سحر خاص في «قلم حمرة»، فالزنزانة التي تعيدنا مشاهدها بين الفينة والأخرى إلى الزمن الحاضر، والتي ظهرت فيها تقنيات التصوير السينمائي العالية، تتحوّل في بعض الأحيان إلى حيّز عبثي بجدالات وحوارات إشكالية أدى الحوار فيها بأسلوب مسرحي أحياناً ضمن جو هذياني يعكس الجو العام المتخبط في الخارج، إلى حدّ بات صعباً التأكد من أن كل ما دار من أحاديث «لورد» مع «صبا» و«نورا» كان حقيقة أم لا. كما بدا هذا الحيز غريباً يدخل الشخوص في معترك تصبح فيه معزولة عن تشويش المجتمع لأفكارها، مفسحاً المجال للتأمل وإعادة ترتيب الأفكار بمساحة عريضة من الحرية.

المطعم والبار يشهد أبرز الحوادث التي تدور في المسلسل كأنّه يؤدي وظيفة دار عبادة بما يحوي من أدوات التفريغ النفسي مثل البوح والاعتراف، من خلال اجتماع الأصدقاء المقربين أو بتقديم المشروبات. أو بالحضور المتواتر للطبيب النفسي «تيم». وفاض سحر هذا المكان في الحلقة التي تتناول موضوع الشعور بالذنب، إذ تحول البار إلى لوحة متكاملة من الشخوص المبتهجة التي تؤدي توليفة جميلة من أغنية للسيدة فيروز «كيفك إنت» بإضافات جديدة، وتخرج ما لديها من مشاعر في مشهد رائع. لكن في أي من مشاهد العمل الذي صور في لبنان لم يستطع المخرج إقناعنا بأن ساحة الحوادث هي دمشق فعلاً.

أما البعد الرمزي فكان حاضراً على امتداد العمل، تاركاً وقعاً لدى المشاهدين مثل ليلة عيد الميلاد عندما تتصالح «هيفا» و«لينا» ويسود جو من المحبة والحب المكان. كما أن مناجاة «ورد» لـ«غسان» ولأمها من دون «تيم» في اللحظات التي فقدت فيها الشعور بالأمان داخل الزنزانة تقف مثالاً آخر لرسالة لعل مفادها أنه في اللحظات الاستثنائية تقتصر حاجتنا على الحدود الدنيا من الضروريات وفي مقدمها الأمان.

كما أن سقوط قذيفة الهاون في مطبخ والدة «ورد» وإطاحتها خزانة المقتنيات الزجاجية التي تعتد بها البيوت السورية ليست سوى إشارة إلى أن هذه الأزمة تنسف الذكريات والتفاصيل الجميلة والآثار، لكن في المقابل التعلق بأصنام الماضي تضع الناس في قوالب وتجعلهم أسيري ذلك الزمان. أما تزامن إطلاق سراح «ورد» مع هرب «تيم» من العصابات المتطرفة فمسألة أخرى. هذا المخطط الشكلي المحكم له أن يكون رافعة لمضمون ضخم وثقيل مثل «قلم حمرة» إلا أنه ضحى بالعفوية والقرب من المشاهد، مبتعداً عن النظرية التي تقول إن العمل الجذاب هو العمل المتكامل الذي يصعب توصيف عوامل نجاحه وفرزها.

كنموذج شذ على هذه القاعدة، تخرج مجريات الحلقة المتعلقة بعيد الأم على المناخ السائد للمسلسل بحوارات رشيقة أقرب إلى الحقيقية تدور بين «ورد» ووالدتها (منى واصف تعيد إلى ذاكرتنا أبهة شخصية «النانا» في مسلسل «عصي الدمع» للمخرج حاتم علي والذي عرض مطلع العقد الفائت ووضع حجر الأساس لنموذج الإيقاع الهادئ في الدراما السورية). كما تستحضر هذه الحلقة روح «تخت شرقي» للكاتبة مشهدي التي رسمت شخوصها بعناية بالغة وجعلتها على مسافة وهمية عن الواقع وبدرجة عالية من الحميمية.

لئن عمد السيناريو إلى حقن كميات كبيرة من النظرية والحكم والأقوال الجاهزة والأخرى المستنبطة التي تمكن المخرج من تبديد ملل محتمل قد ينجم عنها من خلال نقلات عدسته، فمن الواضح أن العمل يبدي التزاما كبيراً بقضايا يسعى إلى إيصالها للمشاهدين. أما السؤال فهو: هل هذه الحوارات المنمقة التي تحاكي خواطر واقتباسات يعجّ بها «الفيسبوك» كفيلة بتغيير الرأي العام؟ أم أنها سريعة الزوال من الأذهان رغم أهميتها البالغة في كثير من الأحيان؟

بلى، نجحت توليفة «قلم حمرة» في تحقيق ما راهنت عليه الكاتبة منذ الحلقة الأولى، أي التحطيم المعنوي للتلفزيون بتمكنها من جلب بعض المسرح والرواية إلى الشاشة الصغيرة والحصول على نسبة متابعة عالية عبر «اليوتيوب»، إذ يحسب «قلم حمرة» إرساء القواعد الأساسية لهذا النمط على التلفزيون وما له من دور كأسلوب في النهوض بالذائقة العامة والإعلاء من شأن هذه الوسيلة التي تعتبر المنبر الرئيسي للفن والثقافة السورية. لكن في ضوء الاعتقاد بأن كل فنان يرسم لوحة واحدة في حياته، فإن «تخت شرقي» لا يزال لوحة يم مشهدي بامتياز.